

سورة الإخلاص

سبب نزول هذه السورة أن اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها فارتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خر مغشياً عليه ونزل عليه جبريل بهذه السورة وقيل إن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك فنزلت وعلى الرواية الأولى تكون السورة مدنية لأن سؤال اليهود بالمدينة وعلى الرواية الثانية تكون مكية واختلف في معنى قوله صلى الله عليه وسلم قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ف قيل إن ذلك في الثواب أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن وقيل إن ذلك فيما تضمنته من المعاني والعلوم وذلك أن علوم القرآن ثلاثة توحيد وأحكام وقصص وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار وهذا أظهر وعليه حمل ابن عطية الحديث ويؤيده أن في بعض روايات الحديث إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن وخرج النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقرؤها فقال أما هذا فقد غفر له وفي رواية أنه قال وجبت له الجنة وخرج مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في الصلاة قل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لأي شيء يصنع ذلك فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه أن الله يحبها وفي رواية خرجها الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال للرجل حبك إياها أدخلك الجنة وخرج الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة كل يوم

(3/371)

غفرت له ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين قل هو الله أحد الضمير هنا عند البصريين ضمير الأمر والشأن والذي يراد به التعظيم والتفخيم وإعرابه مبتدأ وخبره الجملة التي بعده وهي المفسرة له والله مبتدأ وأحد خبره وقيل الله هو الخبر وأحد بدل منه وقيل الله بدل وأحد هو الخبر وأحد له معنيان أحدهما أن يكون من أسماء النفي التي لا تقع إلا في غير الواجب كقولك ما جاءني أحد وليس هذا موضع هذا المعنى وإنما موضعه قوله ولم يكن له كفواً أحد والآخر أن يكون بمعنى واحد وأصله وحد بواو ثم أبدل من الواو همزة وهذا هو المراد هنا واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى الأول أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي للعدد والثاني أنه واحد لا نظير ولا شريك له كما تقول فلان واحد عصره أي لا نظير له والثالث أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض والأظهر أن المراد في السورة نفي الشريك لقصد الرد على المشركين ومنه قوله تعالى وإلهكم إله واحد قال الزمخشري أحد وصف بالوحدانية ونفى الشركاء قلت وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته وذلك في القرآن كثير جداً وأوضحها أربعة براهين الأول قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق لأنه إذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يكن أن يكون واحد منها شريكاً له والثاني قوله لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا والثالث قوله قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغو ... 817

(3/372)

224 إلى ذى العرش سبيلا والرابع قوله وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض وقد فسرنا هذه الآيات في مواضعها وتكلمنا على حقيقة التوحيد في قوله وإلهكم إله واحد الله الصمد في معنى الصمد ثلاثة أقوال أحدها أن الصمد الذي يصمد إليه في الأمور أي يلجأ إليه والآخر أنه الذي لا يأكل ولا يشرب فهو كقوله وهو يطعم ولا يطعم والثالث أنه الذي لا جوف له والأول هو المراد هنا على الأظهر ورجحه ابن عطية بأن الله موجد الموجودات وبه قوامها فهي مفتقرة إليه أي تصمد إليه إذ لا تقوم بأنفسها ورجحه شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير بورود معناه في القرآن حيثما ورد نفى الولد عن الله تعالى كقوله في مريم وقالوا اتخذ الله ولدا ثم أعقبه بقوله إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا وقوله بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد وقوله وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض وكذلك هنا ذكره مع قوله لم يلد فيكون برهانا على نفى الولد قال الزمخشري صمد فعل بمعنى مفعول لأنه مصمود إليه في الحوائج لم يلد هذا رد على كل من جعل لله ولدا فمنهم النصارى في قولهم (عيسى ابن الله واليهود في قولهم (عزيز ابن الله والعرب في قولهم (الملائكة بنات الله) وقد أقام الله البراهين في القرآن على نفى الولد وأوضحها أربعة أقوال الأول أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده والله تعالى ليس له جنس فلا يمكن أن يكون له ولد وإليه الإشارة بقوله تعالى ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام فوصفهما بصفة الحدوث لينفي عنهما صفة القدم فتبطل مقالة الكفار والثاني أن الوالد إنما يتخذ ولدا للحاجة إليه والله لا يفتقر إلى

شئ فلا يتخذ ولدا وإلى هذا أشار بقوله قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني الثالث أن جميع الخلق عباد الله

(3/373)

والعبودية تنافي النبوة وإلى هذا أشار بقوله تعالى إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا الرابع أنه لا يكون له ولدا إلا لمن له زوجة والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى أني يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ولم يولد هذا رد على الذين قالوا انسب لنا ربك وذلك أن كل مولود محدث والله تعالى هو الأول الذي لا افتتاح لوجوده القديم الذي كان ولم يكن معه شئ غيره فلا يمكن أن يكون مولودا تعالى عن ذلك ولم يكن له كفؤا أحد الكفؤ هو النظير والمماثل قال الزمخشري يجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح فيكون نفيا للصاحبة وهذا بعيد والأول هو الصحيح ومعناه أن الله ليس له نظير ولا شبيه ولا مثل ويجوز في كفؤا ضم الفاء وإسكانها مع ضم الكاف وقد قرئ بالوجهين ويجوز أيضا كسر الكاف وإسكان الفاء ويجوز كسر الكاف وفتح الفاء والمد ويجوز فيه الهمزة والتسهيل وانتصب كفوا على أنه خبر كان وأحد اسمها قال ابن عطية ويجوز أن يكون كفوا حالا لكونه كان صفة للنكرة فقدم عليها فإن قيل لم قدم المجرور وهو له على اسم كان وخبرها وشأن الظرف إذا وقع غير خبر أن يؤخر فالجواب من وجهين أحدهما أنه قدم للاعتناء به والتعظيم لأنه ضمير الله تعالى وشأن العرب تقديم ما هو أهم وأولى والآخر أن هذا المجرور به يتم معنى الخبر وتكمل فائدته فإنه ليس المقصود نفى الكفؤ مطلقا إنما المقصود نفى الكفؤ عن

الله تعالى فلذلك اعتنى بهذا المجرور الذي يحرز هذا المعنى فقدم فإن قيل إن قوله قل هو الله أحد يقتضي نفي الولد والكفو فلم نص على ذلك بعده فالجواب أن هذا من التجريد وهو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في عموم ما تقدم كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال ... 818

(3/374)

225 ويفعل ذلك لوجهين يصح كل واحد منهما هنا أحدهما الاعتناء ولا شك أن نفي الولد والكفو عن الله ينبغي الاعتناء به للرد على من قال خلاف ذلك من الكفار والآخر الإيضاح والبيان فإن دخول الشيء في ضمن العموم ليس كالنص عليه فنص على هذا بيانا وإيضاحا للمعنى ومبالغة في الرد على الكفار وتأكيذا لإقامة الحجة عليهم